الفصل الثاني

تجديد الخطاب الديني
وتوضيح ملامح الوسطية في الإسلام

الفصل الثاني

تجديد الخطاب الديني وتوضيح ملامح الوسطية في الإسلام

مدخل

تعد الوسطية واحدة من الفضائل الإسلامية الرئيسية التي تنطوي على قدر كبير من قيم الاعتدال والتسامح بل ليس لدى المسلمين فقط وانما في الفضائل الإنسانية عامة لأن الوسطية في الإسلام منزع استخلافي، ومنطلق كوني، وضابط حضاري أساسي للحياة الإسلامية الفردية والجماعية، كما تنتشر معاني الوسطية في كل مفردة من تفاصيل هذا الدين لتقدم ديناً عالمياً خاتماً، ومهيمناً يعطي أبعاداً حضارية شاملة لكامل الوجود الإنساني وتجربته الاستخلافية الإنسانية في أبعادها الدينية، والسياسية، والثقافية والعمرانية والاقتصادية والادبية والفنية ولذلك فقد رأى أحد الباحثين أن رؤية المسلم الكونية للحياة هي رؤية أمة حضارية وسطية «بحكم جعله منتمياً إلى الأمة الوسط» التي انيطت بها مسؤلية الشهادة الحضارية الشاملة على كامل التجربة الحضارية الإنسانية.[1]

(1) عبد العزيز برغوث، الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة منشورات سلسلة روافد، وزارة الأوقاف، الكويت، 2007، ص420.

وفقاً لذلك تحاول هذه الورقة توضيح ما المقصود بالوسطية في اللغة، والمعنى الاصطلاحي، والمفهوم الشرعي؟، وهل تعتبر الوسطية منهجاً للتغيير الاجتماعي المتوازن؟ وما هي الملامح الأساسية للفكر الوسطى في الخطاب الإسلامي؟ وما أهم مظاهر الوسطية والاعتدال في التراث الإسلامي؟

ونحاول فيما يلي الاجابة على هذه التساؤلات على النحو التالي:

أولاً: مفهوم الوسطية لغة واصطلاحاً وشرعاً

الوسطية في اللغة العربية جاءت من الفعل توسط فلان أي اخذ الوسط بين الجيد والردئ ووسط فيهم بالعدل والحق، والاوسط هو المعتدل في كل شيء.[1]

أي أن الوسط اسم لما بين طرفي الشيء، وهو منه كقولك قبضت وسط الحل، وكسرت وسط الرمح، وجلست وسط الدار، ووسط الشيء صار بأوسطه وكذلك جعلناكم أمه وسطا، وهذا المعنى فيه قولان قال بعضهم وسطاً عدلاً، وقال بعضهم خياراً ورغم اختلاف اللفظ إلا أن المعنى واحد لأن العدل خير، والخير عدل وقيل في وصف النبي ﷺ أنه كان في أوسط قومه أي خيارهم[2].

أما مفهوم الوسطية إصطلاحا فتعني الإعتدال Normality ويقصد بها

(1) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤن المطابع الأميرية، القاهرة، 2009، ص668.

(2) لسان العرب لابن منظور، دار احياء التراث العربي، بيروت، الجزء (15)، 1999، ص ص296-293.

التطابق مع المعيار أو تناسق الجزء مع باقي أجزاء النسق مما يؤدي إلى حسن سير النسق ككل وتوازنه، وينطبق الاعتدال على أية حالة خاصة ولذا فإنه يعتبر من المفاهيم النسبية[1].

لكن عرفت الوسطية قديماً بوصفها حل سياسي بين قطبين متضادين ومتعارضين هما الوسط واليمنين، وبمعنى جديد بوصفها فلسفة اجتماعية حضارية ذات منظور تاريخي لقوة سياسية جديدة توصف بالوسط النشط إستجابة للتغيرات العالمية الجديدة[2].

أما مفهوم الوسطية شرعاً، فالمعنى هنا عن وسطية الإسلام كدين يختلف عن الكلام حول الوسطية في الإسلام كمنهج يتعامل مع فروع الفقة ومعايشات الحياة.

فالكلام حول وسطية الإسلام يتناول الإسلام بين تشديدات اليهود، وتهاونات النصارى، وبين احتقار الأنبياء عند اليهود، وتأليه النصارى للمسيح وغير ذلك من وسطية الإسلام كدين .. أما الوسطية في الإسلام فهي منهج داخل الإسلام بين الافراط والتفريط تحت مقولة الرسول ﷺ أن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبة فسددوا وقاربوا وأبشروا .أي أن الوسطية مستنبطة من التيسير الذي هو ضد التنطع والتشدد.

(1) أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص 287.

(2) انتوني جيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين (مستقبل السياسات الراديكالية)، ترجمة شوقي جلال، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 286، اكتوبر 2002، ص ص 47 - 48.

وقد أوضح إبن تيمية أن الوسطية هي العمل بالنصوص الشرعية على الوجه الذي دلت عليه من غير زيادة أو نقصان، وبذلك تتحقق طاعة الله في امتثال امره وفي ذلك يقول «الاعتدال في كل شيء» إستعمال الآثار على وجهها، فمتابعة الآثار فيها اعتدال والائتلاف والتوسط الذي هو أفضل الأمور.[1]

أي أن الوسطية كما قال «الكوفي» استخدمت للخصال المحمود لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط[2].

ثانيا: الوسطية كمنهج للتغيير الاجتماعي المتوازن

فالوسطية في الإسلام تتخذ من حقيقة الأمر «الأمة الوسط نموذجاً عملياً»، وضوابط المنهج الوسطى موجهاً مرشداً، ومعلن الشهادة الحضارية على الناس رسالة ووظيفة. وفي هذا الصدد لقد تناول أحد الباحثين الأمة الوسط من خلال **ثلاث مقاربات أساسية**:

- ❐ المقاربة الشرعية وتعني أمة الاعتدال والسماحة وسهولة المعاملة.
- ❐ والمقاربة الحضارية، وتعني الفاعلية الحضارية والعمق الاستخلافي.
- ❐ مفهوم الشهود الحضاري، وتعني التجمع الإنساني المركب المستوعب لخلاصات وخبرات الوعي الرباني والمشروع الحضاري الاستخلافي

(1) غازي العتيبي، طرق معرفة الوسطية الشرعية، دراسة أصولية، مجلة الأصول والنوازل، العدد الاول، محرم 1430 هـ، ص 71.

(2) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تأليف أبو التفاء أيوب موسي الحسيني الكوفي، تحقيق عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998، ص 538.

المنفتح على الزمان والمكان، بهدف تحقيق التوازن في الفعل الحضاري الإسلامي خاصة، وفي الفعل الحضاري الإنساني عامة.[1]

ولذلك فإن الوسطية في الإسلام منهج للتغيير يحارب التسيب بكل أصنافه وصوره، فمحاربة الربا وحل البيع، ومحاربة الزنا والفحش وحل الزواج، ومحاربة السرقة والغش ووجوب العمل، ومحاربة تشبه الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل، والأمر بإلتزام ملابس وتصرفات كل جنس بجنسه، ومحاربة الغيبة والنميمة والأمر بالستر وحفظ المؤمنين، ومحاربة إطلاق البصر والأمر بغضه، ومحاربة الكذب والأمر بالصدق، ومحاربة اللامسؤلية والأمر برعاية المسئولية، كل هذا من وسطية الإسلام التي حاربت التسيب والتهتك والانحراف وشرعت شرعاً منه مصلحة المجتمع وبقاء عمارة الأرض، لذلك عرض القرآن الكريم عدداً من المصطلحات التي تصف السلوك المعتدل أو المستقيم (وليس الوسطية بالمعني النظري) والتي استعملت فيما بعد لاصطناع بنية اكثر تماسكا للوسطية ويتضمن ذلك بالدرجة الأولى مصطلحين اثنين واللذين يعنيان السلوك سلوكاً معتدلاً ومستقيماً إزاء الآخرين، كما يريد الله ويريد عباده، وهو القسط والقواما، فالقسط من الفعل «قسط» وهو يعني التوزيع لكنه يستعمل بمعنى المساواة، والنبل الأخلاقي، فالله قائم بالقسط.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: 9] وهذا يعني التصرف السليم والمستقيم، أما الوسطية فجاءت بمعنى الاعتدال

(1) عبد العزيز برغوث، الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة، مرجع سابق، ص 3.

كما في قوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: 76] وقواماً هنا تعني عدلاً وسطاً بين الطرفين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: 143].

وأمة وسطاً أي خياراً أو متوسطين معتدلين، وهكذا فإن كل المصطلحات المستخدمة هنا تعني الاستقامة والاعتدال والنبل الأخلاقي، وكل ذلك مترجم في منهج السلوك المستقيم، والمعتدل، والطيب الصادر عن ذهن ورع، وبالتالي فإن التوازن أو الاعتدال بالوحي يجري التعبير عنه باعتباره الوسط أو التوازن الذهبي الذي يجري الاحتكام إليه في السلوك الجيد والملائم، وعلى العكس من ذلك فإن الافراط والغلو في الدين أو في السلوك اعتبر خروجاً على الطريقة الإسلامية الصالحة في العقيدة والتصرف.

لذلك اكد رفيق حبيب «أن الوسطية منهج معتدل لا يميل إلى الافراط والتفريط وهي منهج للتغيير الواقع من داخله سلمياً، فالافراط هو تغيير الواقع من خارجه بالقوة، والتفريط الاستسلام للواقع»[1].

وهنا يرى بعض الباحثين أن الوسطية هي طريق ثالث فضلاً عن أنها نموذج وحالة وموقف وليست متوسطاً حسابياً **فالامة الوسط في منظور الإسلام** هي:

1- هي مصدر وسط للتوازن والانسجام بين الجماعات البشرية المختلفة.

(1) عبد العزيز راجل، مفهوم الوسطية في الخطاب الإسلامي المعاصر، مؤسسة دراسات وابحاث، السعودية، 2008، ص5.

2- هـي أمة وسـط من حيـث الاعتـدال في المـزاج واجتنـاب الافراط والتفريط.

3- هي وسط من حيث موازين القيم والأنظمة التي تقوم عليها .فالنسق القيمي الإسلامي يوازن بين القيم الفردية والجماعية والمسؤوليات أي الحقوق الاجتماعية[1].

ولذلك فإن الوسـطية في الإسـلام هي منهج ليس فقـط يدعوا إلى التغيير و إنما يسعى إلى تحقيق التقدم والتنمية والحداثة ومن ثم فقد اكدت التجربة عن عدم تعارض بين الدين والحداثة، فقد كشـفت التجربة الماليزية على أن القيم المشـتقة من الدين الإسلامي تدل على أنه دين لا يتعارض مع متطلبات التقدم والحداثة وأنه يمكن أن يكون طاقة تنموية متجددة[2].

خاصـة في ظـل أن العالم المعاصر يشـهد ازمة أخلاقيـة تتجلى في ضرب مـن القلق الأخلاقي، الـذي تكثر في ظلاله الخطابات حـول ضرورة العودة إلى الديـن، وبالتالي فإن تطويـر الخطاب الديني يتطلب دمج قيم الوسـطية والاعتدال في بنية الخطاب الديني بحيث يتجه الخطاب الديني نحو دفع القيم الإنسـانية كالعدل، والعلم، والحرية، والتسـامح، والعيش المشترك في إطار مجرد عن الإنسـان في علاقته بأخيه الإنسان دون نزعة طائفية، ولذلك يقرر

(1) مني أبو الفضل، الأمة القطب نحو تأصيل مناهجي لمفهوم الأمة في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996، ص 45.

(2) انظر كلا من: -Beneulin s., and M.Bana ,Religion undevelo pment ; Rewiting- The secular .script ,London ,zed book,2009.

- عبد المجيد الشرفي، الإسلام والحداثه، الدار التونسية للنشر، ط2، 1991، ص ص 31، 32.

عالم الانثروبولوجيا الفرنسي: كلود ليفي شتروس «أن الإسهام الحقيقي لاية ثقافة لا يتكون من قائمة الاختراعات التي انتجتها فقط بل من اختلافها عن غيرها ودرجة التسامح لديها، فالإحساس بالعرفان والاحترام لدى كل فرد في أيـة ثقافة تجاه الآخرين لا يقوم إلا على اقتناع بأن الثقافات الاخرى تختلف عـن ثقافته في جوانب عديدة، حتـى وأن كان فهمه لها غير مكتمل، ومعنى ذلـك أنه لا وجـود لثقافة إلا في هويـة محددة تميزها عن غيرهـا، فإن انقضى التميـز والاختلاف انتفت الثقافة، وهذا الاختلاف والتميز هو قوام الهوية الثقافيـة وشرط حواره، مـع الهويات الأخرى، فلا حـوار بدون اختلاف، ولا اختـلاف بـلا هوية ولاهويـة إلا بوعي الفرد بين الانـا والآخر، كما أن الاعـتراف المتبـادل بين الثقافـات المختلفة دون النظر إلى مـا تتفق فيه، وما تختلـف عليه يعبر عـن موضوعية الاختلاف، وعن الوعـي الموضوعي الذي يدعم الحوار، ويستنكر نفي الآخر»[1].

وهـذا يعـني أن الثقافات المتباينـة في حالة تفاعل دائم مـن خلال وجود درجة أو اخرى من التسامح المشترك بينهما، ومن هنا فإننا في حاجة إلى اعادة تأكيد اهمية منهج الوسـطية التـي تنطوي على قدر كبير من التسـامح ونبذ التعصب الاجتماعي أو الثقافي أو السـياسي، فالمنهج الوسطى ليس منهج قيم نبيلة فقط ولكن المسـألة تتجاوز نطـاق الأخلاق إلى مختلف جوانب حياتنا اليومية وتؤثر على مستقبلنا وعيشنا المشترك[2].

(1) فيصل دراج، المثاقفة بين الرغبة والحقيقة، مجلة التسامح، عمان، المجلد 1، العدد (2) ربيع 2003، ص ص 1 - 63.

(2) جمال عبد الجواد، التسامح في موسوعة الشباب السياسية، الجزء الثالث، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، 2000، ص7.

لـذا فقد اكد المفكر «أمين الخولي» على ضرورة إبراز المنهج الاجتماعي الوسطى في الإسـلام، فهو يريد بالإسلام ذلك النظام الاجتماعي الذي يقرر أصـول التدبـير المعتدل لحيـاة أفضل سـعيدة ناجحة، محترمـاً في ذلك الواقع الفعـلي، ومحكماً نواميس الكون، وسـنن الفطرة، لا أوهـام الواهمين وظنون الظانـين، كما أنه يريد بالإسـلام ذلـك النظام الاجتماعي الـذي يري الدنيا وحدة متماسـكة، يتأثـر مجموعها بأصغرها مايتأثر به أهـون أفرادها وادق اجزائها، ويبتغي الخولي التدبير الديني الإسـلامي للحيـاة، لا التعبد الفردي الجـزئي مسـتنيراً في ذلـك بأضواء القـرآن الكريـم، وفي هذا السـياق يرى «الخولي» أن الإسـلام يملك القدرة المتجددة على استمرار حضوره في المسائل الاجتماعية، والسبب في ذلك أن القرآن قد عودنا في تدبيره المنهج الاجتماعي الوسـطى ألا يمس سوى الأصول الكبرى للاصلاح الإنساني تاركاً وراء ذلك من تفصيل للتدرج الحيوي، والجهاد العقلي ينتفع في ذلك بكل ما يسعفه عليه نشـاطه، ويؤهله له تقدمه ويقدر في ذلك الإسلام اختلاف الأحوال، وتغير الزمـان، أي أن «الخولي» يحاول الربط بين النص في كلياته العامة الشـاملة، وبين الواقع في تغيراته وتجلياته المستمرة من خلال جهود الاصلاح والتجديد والتي تفسر هذه الكليات وفقاً لاختلاف الزمان، والمكان وطبيعة كل بيئة.

وحـاول «الخـولي» أن يطبق موقفه مـن علاقة النـص بالواقع من خلال بعـض المشـكلات الاجتماعية مثل المـال والعمل، فيرى أن الإسـلام جاء في مسألة المال بكليات عامة من المهم توظيفها من أجل خدمة العلاقة الوسطية بين غريزة حب التملك لدى الإنسان، والوظيفة الاجتماعية للمال من خلال سـعي القرآن إلى عـدم ترك رغبة الإنسـان في التملك إلا مـا لا نهاية، ولكنه سعى إلى هز أركان هذه الملكية من خلال الاقرار أن المال مال الله ولابد من

إخراج الزكاة للفقراء[1] فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: 33].

ومن ثم فإن نظرة القرآن إلى هذا المال في ايدي الواجدين انما هو تأصيل وتأسيس الشعور لدى وأجدي هذا المال بعدم الاثرة في هذا الثراء، والتفرد بهذا الغنى، والحق المباشر في تلك الاموال وهي الفكرة التي يعمل الهدي القرآني على ترسخها وتكوينها في نفوس اصحاب المال، وهنا يوضح «الخولي» كيف أن القرآن الكريم ادرك حب الإنسان للتملك، ولكنه حاول في نفس الوقت أن يهذب تلك الغريزة من خلال القول بإستخلاف الله للإنسان في التصرف في هذا المال فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7] ومن ثم فإن القرآن حين يحمي الملكية الفردية واقعياً لا يفاجأ الناس بتجريدهم من أموالهم تجريداً يفتر همتهم، ويثني عزائمهم ويقعدهم فلا يبتكرون، ولا يزودون عن حماهم، ثم هو حين هز أسس الملكية الخاصة يكون مثالياً يكفكف عن غلوا الأغنياء ويزلزل صلتهم بأموالهم، ويجعلها للناس جميعاً واصحابها عليها أمناء مستخلفون وهو مال الله لا مالهم، وبهذا التعديل الديني السماوي الصبغة، الالهي الروحي يقيهم أخطار الجموح في التملك والوصول إليه بأي وسيلة، واهدار الخلق والفضيلة والاسراف في التمتع ونسيان حق الجماعة أي حق الله الذي هو صاحب المال[2].

وإذا كان الإسلام وازن في منهجه بين الرغبة الفردية للتملك، وحق

(1) أحمد سالم، الإسلام العقلاني (تجديد الفكر الديني عند امين الخولي)، مكتبة الاسرة، القاهرة، 2009، ص ص 80 - 82.

(2) أحمد سالم، الإسلام العقلاني، مرجع سابق، ص83.

المجتمع في هذا المال، فإن المنهج الإسلامي وازن أيضًا بين دور الدين دنيوياً ومادياً، وروحياً ونفسياً، حيث أوضح «الخولي» أن الإسلام هو دين دنيوي معني بشؤون الدنيا فأكد على العمل واستعمار الأرض، فالنظرة الفاحصة للقرآن تدلنا على أن الحياة منظمة بنواميس عملية مضبوطة بنظم واقعية خارجية والنجاح فيها والظفر بخيرها مرهون بالعمل والاجتهاد، ومترتب على كفاحه العملي ومرتبط بإدراكه الصحيح لواقع الأشياء الكونية وتقديره السليم لنظم هذا العالم وتدبيراته، ولن يغني الإنسان عن ذلك شيئاً آخر من شئون اعتبارية معنوية أو نفسية روحية إلا إذا قام على واقع وصار أمراً مشاهداً وحاضراً ثابتاً، فما عدا العمل من نية طيبة وسريرة خيرة، وخلق كريم وعقيدة صحيحة إذا كان وحده فقط وبلا عمل فلا جدوى له ولا أثر في هذه الحياة الدنيا وإذا كان مع العمل فنعم، فإنه يسدده ويوفق خطاه، كما أن العمل عند «الخولي» هو الذي يرفع الناس درجات بعضهم فوق بعض، ولكل درجات مما عملوا.

وهذا ما يوضح مدى اهتمام الإسلام بقيمة العمل لأنه أساس النهوض للأمة وقيامها من حالة الركود والتخلف التي تعيش فيها، وهذا المعنى هو ما تحتاجه الأمة للتغيير الآن في هذه الظروف التاريخية، لكن الإسلام أهتم أيضًا بالجانب الروحي والنفسي فجعل العبادات والغيبيات والمعتقدات الإيمانية أساس أصيل في الإسلام، فالحاجة إلى الإيمان ضرورية نتيجة للضعف الإنساني العام فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: 8] وفي قوله ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: 12].

ومن هنا يرى «الخولي» أن الدين الإسلامي يسهم في التكوين الروحي للأفراد و إحداث السلام النفسي لهم، وذلك لأن السلام النفسي هو القوة المعنوية التي لا قيمة لقوة مادية إلا إذا اعتمدت عليه، ومن ثم فإن الدين الإسلامي هو طب معنوي للنفوس، كما هو الطب العملي بالنسبة للأجسام والأجهزة، فهو يعمل على سلامة الاعضاء حتى يستمر اتساقها، و يستقر نظامها، وتتحقق سلامة الجسم، وعلى هذا يطب الدين الغرائز، والقوى النفسية المودعة في الكيان الإنساني المسيرة للوجود البشري ليطرد تعادلها، و يثبت نظامها، فتتحقق بذلك سلامة كسلامة الجسم، وبذلك يسهم الدين في إعطاء القوة للإنسان على مواجهة تقلبات الأيام، ومفاجآت الليالي بشيء أفضل وأفعل وهو الإيمان الراضي، والرضا النفسي المؤمن المطمئن[1] فقال تعالى ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 153].

وهذا ما يؤكد وسطية المنهج الإسلامي واعتداله في كل الأمور الحياتية والاخرويه والفضائل الإنسانية، وقد اكد ذلك ما ذهب إليه «ارماندو سالفايوري» من أن الدين الإسلامي بوصفه آخر الديانات في أسرة الديانات الإبراهيمية استطاع أن يؤسس حضارة دينية وسطية عظمى من خلال اعادة صياغة عناصر أساسية في الديانات السماوية السابقة (أي اليهودية والمسيحية) كما أن النجاح السياسي المبكر للإسلام يرجع لانه استوعب الموضوعات الأساسية في التاريخ الروماني المتأخر ولم يتناقض معها، كما حاول الإسلام أن يدخل ضرباً من الكمال على ملامح الحضارة المحورية في

(1) أحمد سالم، الإسلام العقلاني، مرجع سابق، ص ص 86 - 92.

عمليـة اعادة بنـاء الرابطة الاجتماعية خاصة بناء علاقـة ثلاثية متوازنة مع الأنا، والآخر والله[1].

ولذلـك لم نكون مبالغـين إذا قلنا أن الإسـلام بقيادة سـيدنا محمد ﷺ كما يقول «فودين Fowden» في ممارسـته ورسالته كآخر الأنبياء وأحد بناه الـدول العظام وكأول قائـد للأمة الجديدة قام في تكويـن وتنظيم العلاقات الإنسـانية على منظومة من القيم أبعد من القرآن ذاته على نحو يتصل مباشرة بنظام الحياة الاجتماعية والواقع الحي المعاش[2].

ثالثـاً: الملامـح الأساسـية للفكر الوسـطى فـي الخطاب الإسلامي المعاصر

إن تجديد الخطاب الديني المعاصر يتطلب تحديد ملامح الفكر الوسـطى ومضمونه، وفحص وتمحيص منطلقات هذا الخطاب الذي تحمله الأمة الوسط لفرز النافع منها، والصالح عن غيره، مما لا يصلح لعصرنا الراهن، لكن يجب التأكيد على أن الحديث عن الوسـطية لا يتناول ثوابت الإسـلام وأصوله فما أحله الإسـلام حلال إلى يوم القيامة وما حرمه الإسـلام فهـو حرام إلى يوم القيامـة، ولذلـك عندما تطرح الوسـطية تفيد العدل والحكمـة، والاعتدال والتوزان المنشـود في الحياة، الوسـطية بين الافراط والتفريط، بين التقصير والغلـو، فهي الحـق بين باطلين والعـدل بين ظلمين أي التواسـط أو التعادل

(1) ارماندو سالفاتوري، المجال العام (الحداثة الليبرالية والكاثوليكية والإسلام) ترجمة أحمد زايد، المشروع القومي للترجمة، وزارة الثقافة، القاهرة، 2012، ص ص 235 - 236.

(2) المرجع السابق، ص 237.

بـين طرفين متقابلين أو متضادين مثل الأطراف المتقابلة أوالمتضادة الروحية والماديـة، الفردية والجماعية الواقعية والمثالية، ولكن نرى انقسـام الأمة في الوقـت الراهن بين الذيـن افتتنوا بركب الحضارة الغربيـة، والتزمها اعتقاداً منه أنـه وصل إلى المدنية التـي يتمتع بها الغرب، وبين الآخـر الذي إصطدم من سيطرة المادة فترك كل شيء والتجأ إلى العزلة والتعبد، ومن ثم لم يستطع الاول أن ينال مراده لأنه فقد إنسانيته وجرى وراء غرائزه المادية، ولا الثاني حقـق غايته لأن الله يعطي العاملين المخلصـين أضعاف ما يعطي العابدين، فانفصمت عرى الأمة بين مطالب بالماديات وآخر ملتزم بالتجرد التام عنها، فضاع النمط الأوسـط وغابت معادلة التوازن من فكر وسـلوك لدى عموم الأمة الذي اراده الإسـلام منهجـاً في إحداث الاعتدال والتوازن، ولذلك فقد رأى أحـد الباحثـين أن الأمة الإسـلامية - في كثير من مراكزهـا وأطرافها - تعيـش حالة وهن وضعف وغثائية حضارية شـاملة أفقدتهـا حالة التوازن والرشـاد والفاعلية في كثير من المجالات التي تتضمنها حقيقة الأمة الوسط ورؤيتهـا للحياة، ومن هنا فلابد من عملية تجديـد أو تغيير تتوجه إلى الأمة عموما و إلى الإنسـان خصوصا من أجـل إعادة البناء وفق منطلقات وحقائق الوسـطية الحضارية الإسـلامية كرؤية ومنظور ومنهـج للتجديد والتغيير والشهود الحضاري الشامل[1].

ولذلك سيتركز حديثنا خلال هذه النقطة حول ابراز أهم ملامح وحقيقة الفكر الوسطى للأمة الإسلامية بوصفها كياناً بشرياً، وواقعاً تاريخياً وثقافياً

(1) عبد العزيز برغوث، الشهود الحضاري للامة الوسط في عصر العولمة، مرجع سابق، ص43.

وعمرانياً حقق شروط النموذج الاستخلافي الحضاري ومناهجه الوسطى في النموذج النبوي والخلفائي الأول، ومن هنا فإذا أدركت الأمة حقائق وسطية الإسلام وفهمتها وطبقتها استعادت عافيتها وتحولت إلى أمة نشطة قوية، أمة حاضرة فاعلة متمكنة.

ويمكن تحديد أهم سمات وملامح الوسطية في الإسلام على النحو التالي:

السمة الأولي :الخيرية:

حيث تميزت الأمة الإسلامية بأنه أمة خيرية فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 10] بمعنى أنهم خير الأمم وانفع الناس للناس لأنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، ومن أبرز اوجه خيرية هذه الأمة، الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وانها امه تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وبالتالي فهي انفعها للناس لأنها تدعوهم إلى الخير ولا ترجوا منه ثمنا له، فضلاً عن كونها أكثر الأمم استجابة للأنبياء في الدخول إلى الإسلام وبالتالي فهذه الأمة اقرب الأمم إلى الحق واعتناقه. وهذه علامة الخير والرشد. فضلاً عن كون هذه الأمة لا تجتمع على ضلاله، وذلك لانها أمة ورثت الرسل في القيام بهداية البشر ودعوتها إلى ما دعا إليه سائر الرسل من الإيمان بالله، وعبادته وحده، فهي ذات رسالة تبلغها، وتستمر في ابلاغها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولذلك ما كان لهذه الأمة أن تضل عن مهمتها ورسالتها مهما طال عليها الأمد وامتد بها الاجل لأنها إن ضلت هي فلن يهتدي أحد لانقطاع الوحي والرسالة وقد يضل بعض أفرادها وطوائفها عن الحق، بل قد يكفر ويلحد وينافق طوائف منها ولكنها لا تجتمع على ذلك أبداً، فقال ﷺ **«أن الله قد أجار أمتي أن**

تجتمع على ضلالة»[1] بخلاف من قبلها من الأمم فإنه كان الحق يغلب منهم حتى لا تقوم به طائفة، فهؤلاء أهل الكتاب اليهود فيهم والنصارى إندثر الحق والدين الصحيح بينهم وانقرضت الفرقة التي كانت على الحق أو انحرفت واصبحت فرقهم كلها على ضلالة، وكفر وشك، فها هم سائر فرقهم وطوائفهم قد اجمعوا على الضلالة واعرضوا عما جاء به الإسلام من الحق فليس منهم رجل رشيد أما الأمة الإسلامية فهي لا تجتمع على ضلالة أبداً بل لابد أن تبقى طائفة منهم على الدين الصحيح ظاهرة قائمة به. أي ثابتة على الهدي والتوحيد ولا يذهب فيها نور النبوة والقرآن بل ما يزال مشتعلاً مضيئاً فيما تحمله جيلاً بعد جيل إلى يوم قيام الساعة.

ومن علامات الخيرية أيضاً كون الكتاب الذي أُنزل عليها خير الكتب السماوية فيقول «ستانلي لين بول» وهو عالم من الأثار الإسلامية أن أكبر ما يمتاز به القرآن أنه لم يتطرق شك إلى اصالته، وأن كل حرف نقرؤه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أي تغيير منذ اربعة عشر قرناً. وذلك بخلاف الكتب السماوية السابقة التي طرأ عليها الكثير من التحريف، والتبديل، والزيادة، والنقصان بل والضياع أيضًا ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

فضلا عن كون نبي الأمة الإسلامية أفضل الأنبياء والرسل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام. ولذلك يقول المفسرون أن أمة يختار الله أفضل رسله، وأعلاهم مكانة ومنزلة عنده وأحبهم إليه فيبعثه فيها هادياً ونبياً ورسولاً لهي أمة حرية بأن تكون خير أمة، لأنها أمة خير الخلق والرسل

(1) عن ابن أبي عاصم، وحسة الشيخ الالباني في سلسلة الاحاديث رقم 1331.

منه تعلمت وعلى يديه تربت وبه فاقت الأمم، علاوة على تقدمها على الأمم السابقة في الحشر والحساب يوم القيامة ودخول الجنة من كونها آخر الأمم فيقول ﷺ **«نحن الأخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فأختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد»**.[1] وهذا يعني أننا الآخرون زماناً، والسابقون منزلة وبالتالي فهم أكثر أهل الجنة فيقول ﷺ اترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا نعم، قال اترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا نعم، قال ترضون أن تكونواشطر أهل الجنة؟ قلنا نعم قال والذي نفس محمد بيده، أني لارجوا أن تكونوا شطر أهل الجنة وذلك لأن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كشعرة بيضاء في جلد الثور الأسود[2].

وبذلك اتضحت لنا أوجه خيرية من الأمة الذي هو ملمح من ملامح الوسطية.

السمة الثانية: العدل:

فالعدل يعد من أهم سمات الوسطية، لأن الخيار من الناس عدولهم حيث أن العدل الذي أمرت به هذه الأمة، حق لكل واحد من الناس فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58].

(1) أخرجه البخاري، حديث رقم 876 .

(2) علي محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2005، ص ص 69 - 90.

وبالتالي فالعدل حق لكل الناس وجميع الناس لا عدلاً بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وانما هو لكل إنسان بوصفه إنساناً، فهذه الصفة صفة الناس هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصيغة التي يلتقي عليها البشر جميعاً، مؤمنين وكفار، اصدقاء وأعداء، سوداً وبيضاً عرباً وعجماً، والامة الإسلامية قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت أمرهم - فالعدل واجب على هذه الأمة ولو كان فيه مراغمة لعواطف البعض والكراهية وفي الواقع لم يكن العدل في حياة هذه الأمة الإسلامية الخاتمة -مجرد مثل عليا، أو وصايا تفخر بها دون ممارسة أو تطبيق، ولكنه كان واقعاً عاشته هذه الأمة وممارسته، وطبقته في واقع حياتها على مر تاريخها الطويل، على تفاوت في ذلك التطبيق بين زمان وزمان، ودولة ودولة وحسب اشتعال جذوة الإيمان في قلوب الحاكمين وضوئها، على أن ما يقطع به أنه لم يخل الزمان ممن يقيم الحق والعدل ويقوم بالقسط ويحكم به هذه الأمة. ولمعرفة المواقف الرائعة لعدالة هذه الامة[35] إعتراف اعداء هذه الأمة بعدالتها، فيقول «وول ديورانت» صاحب كتاب قصة الحضارة وهو مستشرق يهودي صهيوني، لقد كان أهل الذمة (المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون) يتمتعون في عهد الخلافة الاموية بدرجة من التسامح لانجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا احراراً في ممارسة شعائر دينهم، احتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص، وضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، ولم تكن هذه الضريبة (الجزية) تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، وبعض من الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ والارقاء والشيوخ،

والعجـزة، والفقر الشـديد، وكان الذميون في نظير هـذه الجزية يعفون من الخدمـة العسـكرية، ولا تفرض عليهم الـزكاة، وكان لهم عـلى الحكومة أن تحميهم . كما اعترف المستشرق «ستانلي لين بول» بأن الاندلس لم تنعم طوال تاريخها بحكم رحيم وعادل كما نعمت به في أيام الفاتحين[1].

وبهذا يتضح ملمح من ملامح الوسطية وكيف مارسته أمه الإسلام مقارنة مـع غيرهـا من أهل الكتابـين اليهود والنصـارى، واتضـح إلى أي مدى كان الإسلام ديناً يقيم العدل ويحارب الظلم والاضطهاد.

السمة الثالثة :اليسر والتوسعة ورفع الحرج:

فمن ابرز سمات الوسطية التيسـير ورفع الحرج وهما مرتبة بين الافراط والتفريـط، وبين التشـدد والتنطع، وبـين الاهمال والتضييـع، ويقول أحد الباحثين أن السـماحة والسـهولة راجـع إلى الاعتدال والوسـط، فلا إفراط ولا تفريـط، فالتشـدد حرج من جانب عـسر التكليـف، والتقصير حرج فيـما يؤدي إليه من تعطيل المصالح وعدم تحقيق مصالح الشرع، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

وأن التكليف بحسـب الوسـع والمقدرة فقال تعالى ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعـام: 152] وهـذا يبين أن التكليف بحسـب الوسـع والطاقة، ولا شك أن الأحكام الشرعية إذا كانت مطلوبة في حدود الوسع والاستطاعة دول بلـوغ الطاقـة، ففي ذلك الدلالـة الظاهرة على أن الحـرج مرفوع، وأن

(1) وول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، تقديم محيي الدين صابر، دار الجيل، بيروت، 1988.

اليسر سمة هذا الدين، والتوسعة على العباد خاصية من خصائصها، فهي الحنيفية السمحة والوسطية التي لاعنت فيها، ولا مشقة.

وهذا لا يعني -أيضاً- التفريط والتساهل والتهاون بحجة أن هذا الدين يسر والتوسعة إلى الشارع لا إلى اهواء الناس ورغباتهم وما الفوه ودرجوا عليه، فلا افراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء، ثم أن قضية التيسير والتوسعة قضية منهج متكامل وليست تتعلق بجزئية أو جزئيات كما يتصور البعض، وبالتالي فلن نستطيع أن ندرك حقيقة الوسطية إلا إذا فهمنا سمة اليسر والتوسعة ورفع الحرج، والا تصبح الوسطية معنى مفرغاً من حقيقته وقولاً نظرياً لا وجود له في الواقع، وبذلك يفقد الدين خاصية لها اثرها في حياة الناس ومآلهم[1].

السمة الرابعة: الحكمة:

إن الحكمة ملمح من ملامح الوسطية، وتحديد هذا التوسط يكون بمراعاة جميع الأطراف، تحقيقاً للمصالح وردءا للمفاسد وهذا لا يتحقق إلا باتقان الحكمة. فالحكمة كما قال ابن القيم أنها معرفة الحق، والعمل به والاصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه وشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، أي هي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، وقال في موضع آخر الحكمة أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه، أي لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها ولها حدود ونهايات تصل اليها، ولا تتعداها

(1) علي محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ص 120 - 130.

ولها اوقات لا تتقدم ولا تتأخر كانت الحكمة مراعاة هذه الجوانب الثلاث بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي احقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها متخالف الحكمة ولا تؤخرها عنه فتفوتهاوهذا حكم عام لجميع الاسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً، فاضاعتها تعطيل للحكمة وتعجيلها قبل وقتها أو تعدي الحق، إضاعة للحكمة وهذا يتطلب فعل ما ينبغي على الوجه الاكمل في الوقت المناسب[1].

كما أن للحكمة أركان ودعائم تقوم عليها وهي ثلاثة أركان، العلم، والحلم، والاناة، وآفاتها ومعامل هدمها، الجهل، والطيش والعجلة، وبالتالي لاحكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول[2].

بالتالي فإن كمال الحلم يكون من كمال العلم وكمال الاناه، وهذا من أعظم أركان الحكمة التي هي من أهم ملامح الوسطية.

السمة الخامسة: الاستقامة:

في الواقع أن الوسطية هي استقامة ولو لم تكن على نهج الاستقامة لكانت انحرافاً، والانحراف إما افراط أو تفريط فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30][3].

(1) ابن القيم الجوزيه، مدارج الساكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982، ص ص 478 - 479.
(2) المرجع السابق، ص 479.
(3) المرجع السابق، ص 480.

وهذا يعني أن لزوم الصراط المستقيم استقامة على دين الله وشرعه وهذا عين الوسطية وجوهرها والاستقامة كلمة جامعة مانعه اخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء، والاستقامة تتعلق بالاقوال والافعال، والأحوال، والنيات، فالاستقامة كما يقول ابن القيم أعظم الكرامة لزوم الاستقامة، وبالتالي فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله، ومن هذا فلا توجد استقامة بدون وسطية، ولا وسطية بدون استقامة، فالاستقامة على ثلاث درجات الأولى الاستقامة على الاجتهاد دون الاقتصاد، ولا عادياً رسم العلم ولا متجاوزاً حد الإخلاص، ولا مخالفاً نهج السنة[1].

السمة السادسة: البينية:

من ملامح الوسطية البينية والتي تدل على وقوع شيء بين شيئين. أي أن هذا الأمر فيه اعتدال وتوازن وبعد عن الغلو والتطرف، وبهذا تكون البينية صفة مدح لا مجرد ظرف عابر، وبالتالي فقد ربط العلماء بين الوسطية والبينية، فاذا نظرت إلى الشريعة الإسلامية وجدتها وسطاً في كل أحكامها فأحكامها بين الغالي والجافي، واذا نظرت إلى الأمة الإسلامية وجدت وسطيتها في كل مجال، فهي موطن الرسالة الأولى، وهي وسط في موقعها الجغرافي المهم، حيث كانت مهابط الوحي، أرض الإسلام ومهد الإسلامية الأولى فهي الوسيط بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب وهي مركز الوصل بين افريقيا واسيا وطرف ممتد من أوروبا وهي الرباط البري بين الطرق المائية[2].

(1) علي محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم مرجع سابق، ص 168.
(2) يوسف القرضاوي، الوسطية والاعتدال في مؤتمر الوسطية مختارات من فكر الوسطية، جمعية العزم والسعادة الاجتماعية، مكة، 2005.

وهذه البينية تعطي التوزان والاستقامة والعدل ومن ثم الخيرية التي هي الوسطية الحقة.

وفضلا عن السمات الست السابقة للوسطية في الإسلام فقد حدد بعض الباحثين ملامح الفكر الوسطى في الركائز التالية:

- ❐ إن الوسطية تتميز في الفكر في موقعه المعتدل من قضايا كثيرة ومهمة فهو وسط بين دعاة المذهبية الضيقة، ودعاة اللامذهبية المتطرفة.
- ❐ وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط، ودعاة الانغلاق على النفس.
- ❐ وسط بين المحكمين لعقل بلا مبرر، و إن خالف النص القاطع، والمعنيين للعقل ولو في فهم النص.
- ❐ وسط بين المقدسين للتراث وأن بدا فيه قصور البشر، والملغين للتراث و إن تجلت فيه روائع الهداية.
- ❐ وسط بين المستغرقين في السياسة على حساب التربية، والمهملين للسياسية بدعوى التربية.
- ❐ وسط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها أو الغافلين عنها حتى تسقط في ايدي غيرهم بعد نضجها.
- ❐ وسط بين المستغرقين في الحاضر، الغائبين عن المستقبل، والمبالغين في التنبؤ بالمستقبل كإنه كتاب يقرؤونه.
- ❐ وسط بين المقدسين للاشكال التنظيمية كأنها أوثان، والمتحللين من أي عمل منظم كأنه حبات عقد منفرط.

- وسط بين الغلاة في طاعة الفرد، والمسرفين في تحرره كأنه عضوا ليس في جماعة.
- وسط بين الدعاة إلى العالمية دون رعاية للظروف والملابسات المحلية، والدعاة إلى الاقليمية الضيقة دون أدنى ارتباط بالحركة العالمية .
- وسط بين المفرطين في التفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر، والمسرفين في التشاؤم فلا يرون إلا الظلام ولا يرقبون للظلام فجراً.
- وسط بين المغالين في التحريم كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حلال، والمبالغين في التحليل كإنه لا يوجد في الدين شيء حرام.
- وسط بين الذين ينكرون الالهام مطلقاً، فلا يعترفون بوجوده، ولا بأثره والذين يبالغون في الاعتدال به حتى جعلوه مصدراً للأحكام الشرعية.
- وسط بين التشدد ولو في الفروع والجزئيات، ودعاة التساهل ولو في الأصول والكليات .
- وسط بين فلسفة المثاليين الذين لا يكادون يهتمون بالواقع، وفلسفة الواقعيين الذين لا يؤمنون بالمثل العليا.
- وسط بين دعاة الفلسفة الليبرالية التي تعلي الفرد وتضخمه على حساب المجتمع، ودعاة الفلسفة الجماعية (الماركسية) التي تعلي المجتمع وتضخمه على حساب الفرد.
- وسط بين دعاة الثبات ولو في الوسائل والآلات، ودعاة التطور ولو في المبادئ والغايات.

- وسط بين دعاة التجديد والاجتهاد وأن كان في أصول الدين وقطعياته، ودعاة التقليد وخصوم الاجتهاد وأن كان في قضايا العصر التي لم تخطر ببال السابقين.
- وسط بين الذين يهملون النصوص الثابتة بدعوى مراعاة مقاصد الشريعة، والذين يغفلون المقاصد الكلية باسم مراعاة النصوص.
- وسط بين مراعاة الغلو في التكفير حتى كفرو كل المسلمين المتدينين والمتساهلين فيه ولو مع صرحاء المرتدين[1].
- هذه هي أهم ملامح الوسطية التي يجب أن يتبناها الفكر المعتدل والمتوازن في الخطاب الإسلامي المعاصر.

رابعا: أهم مظاهر الوسطية في التراث الإسلامي

وأخيرًا يمكن تحديد أهم مظاهر الوسطية في التراث الإسلامي من خلال محاور ثلاثة هي:

أولا: الوسطية في العقيدة:

فالمتأمل لمنظومة العقائد الإسلامية يجد أنها عقيدة وسطية بين من يتبعون الخرافات والاسطورة مهملين العقل والدليل مصدقين بكل شيء يصل اليهم تقليداً واتباعاً أعمى، وبين الماديين الذين ينكرون كل شيء وراء الحس ولا يأبهون أيضاً بنداء الفطرة والاشواق الروحية، وأن الإسلام يقيم عقائده على براهين عقلية متصنعة وادلة ساطعة فيقول

(1) المرجع السابق.

تعالى ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون: 117].

ونجد في هذه الاية اهمية البرهان والدليل، وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: 111].

كما أن الأنبياء اخبروا بأنهم مسلمون ودعو قومهم للإسلام، لانه الدين العقيدة الحقة التي تدعوا إلى التوحيد فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ [آل عمران: 19] وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

وهذا يدل على أن جميع دين الأنبياء واحد وهو الإسلام ودعوتهم واحدة وهي الدعوة إلى التوحيد لله وأفراده بالعبادة والمسلمون واتبعوا الرسل فهدوا لأقوم السبل فكان قولهم هدى بين ضلالتين وحقا بين باطلين أمتا اليهود والنصارى فاليهود غلب عليهم التقصير والتفريط والجفاء ومن ابرز تفريطهم وتقصيرهم إتخاذهم الانداد لله واغراقهم في تشبيه الخالق بالمخلوق، والنصارى غلب عليهم الغلو والافراط فألهوا الأنبياء حيث جعلوا المسيح عليه السلام هو الله فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ ﴾ [المائدة: 17] أي أن الإسلام كان وسطياً في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته التي هي أساس الرسالات وعمودها الفقري وهي القاسم المشترك بينها فهو كلبن سائغ يخرج من بين فرث ودم[1].

(1) محمد باكريم محمد باعبد الله، برسطية أهل السنة بين الفرق، مرجع سابق، ص242.

كما أن الإسلام وسط بين من يؤمنون بالعقل وحده مصدراً للمعرفة، ومن ينكرون قيمة العقل و يقولون بالإلهام أو الأوهام، إذ أن الإسلام يقف موقفاً مميـزاً في الربط بين العقل والوحي فهو يعتبر أن بينهما علاقة كعلاقة البصر بالنـور، فالبصر يغدو عديم القيمـة أو الفائدة في غياب النور، كما أن النور لا جـدوى منه إذا سـار في ضوء اشـعته اعمى، فالعقل بـصر، والوحي نور، وهي كما نرى وسط بين هؤلاء وأولئك.

ثانيا: الوسطية في الشريعة:

و إذا كان الإسـلام نظامـاً مرتبطاً بالشرع، كما يقول مفكري الإسـلام ارتباطاً لا إفكاك عنه، فالله انزل على عباده شريعة حنيفة سمحة سهلة حفظ فيهـا على الخلـق قلوبهم وحببها لهم بذلك وسـطاً تتضمن المبـادئ والقواعد التي تؤمن النجاة في الدنيا والآخرة.[1] والاعتدال هو فضيلة الإسلام السامية وتحيط بكل شئون الحياة، لكنها حق من حقوق الله، أو أنها من ذلك المزيج بـين الأمرين(حق الله، وحق العباد، لكن حق الله غالب فيه، وهذه الفكرة موجودة في كتابات إسـلامية أخرى، والاعتدال والاستقامة في الشريعة هما جوهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمطلوب الالتزام به من جانب العلماء المسـلمين، ولذلك أيضًا تأثيراته في الخطاب الإسـلامي المعاصر، ومن وسـطية الإسلام في التشريع مراعاة سنة التدرج فيما يشرعه لهم من واجب أو محـرم فنجد حين فرض الفرائض كالصلاة، والصيـام والزكاة فرضها على مراحـل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الاخـيرة، فالصلاة فرضت أول ما

(1) أبي إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، الجزء الثاني، سلسلة التراث، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2006، ص 116.

فرضت ركعتين ركعتين ثم أقرت في السفر على هذا العدد، وزيدت في الحضر إلى أربع أعني الظهر، والعصر والعشاء، والصيام فرض أولا على التخيير من شاء صام، ومن شاء أفطر أي اطعم مسكينا من كل يوم يفطره والزكاة فرضت أولا بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب ومقادير وحول بل تركت لضمائر المؤمنين وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فرضت الزكاة ذات النصاب والمقادير في المدينة، والمحرمات وكذلك لم يأن تحريمها دفعة واحدة فقد علم الله سبحانه وتعالى مدى سلطانها على الأنفس، وتغلغلها في الحياة سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، فليس من الحكمة منع الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم، وانما الحكمة إعدادهم ذهنياً وعقلياً ونفسياً لتقبلها واخذهم بسنة التدرج في تحريمها حتى إذا جاء الأمر الناهي عن الفعل كانوا مسرعين في تنفيذه قائلين سمعنا واطعنا. ولعل اوضح مثال لذلك في تحريم الخمر على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي حتى إذا نزلت الأيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة فهل أنتم منتهون قال المؤمنون في قوة وتصميم قد انتهينا يارب[1].

لذلك اعتمد الإسلام على الوسطية في تشريعه سواء كان ذلك في العبادات المحضة أو في المعاملات، وكل من اطلع على عبادات الإسلام ومعاملاته يرى أنه لا يحيد عن الموقف المعتدل، ويرفض التطرف الذي يقتضي الميل إلى جانب على حساب آخر، فكان ﷺ يأمر بالتوسط في القراءة في الصلاة الجهرية الذي هو الوسطية والاعتدال فقال تعالى ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ

(1) يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص 181.

تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 205].

وأيضا أمر ﷺ بالتوسط في الصلاة وتخفيفها فقال يا أيها الناس أن منكم منضرين فأيكم أم الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة.

ثالثا: وسطية الإسلام في الأخلاق والسلوك:

إن الأخلاق والسلوك كان لهما في المنهج الإسلامي أهمية كبرى، فصاغهما على وفق اتجاهه في الاعتقاد، وبناهما على أساس الحقيقة الكبرى للكون والحياة، وغاية الجنس البشري ومآله ومهمة وجوده من حيث هو خليفة الله في الأرض يقيم فيها شريعة الله ومناهجه.

ولذلك جاء الإسلام وسط في باب الأخلاق والسلوك بين غلاوة الواقعيين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعين الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق فاؤلئك اعتبروها خيراً محضاً، وهؤلاء أساءوا الظن فعدوها شراً خالصاً، وكانت نظرة الإسلام وسطا بين أولئك وهؤلاء فالإنسان كما صوره القرآن الكريم مخلوق مركب من العقل، وفيه الشهوة فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملاك، وقد هدى للنجدين وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين، وإما شاكراً وإما كفوراً فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى، ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى. ولذلك فالأخلاق الإسلامية آداب ربانية بمعنى أن الوحي هو الذي وضع أصولها، وحدد أساسياتها،

التي لابد منها لبيان سمات الشخصية الإسلامية، حتى تظهر متكاملة متماسكة متميزة في مخبرها ومظهرها، وبالتالي فإن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية، روحية، أو جسمية أو دينية أو دنيوية أو عقلية أو عاطفية أو اجتماعية الإ رسمت له المنهج الامثل، للسلوك الرفيع، يختلف عما رسمه الناس في مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة وباسم العرف أو المجتمع وبالتالي فقد رسم الإسلام منهجاً وسطياً متكاملاً وواقعياً في مجال الأخلاق منسجماً، متناسقاً مع طبيعة الإنسان. ولذلك كان هدى النبي ﷺ قائماً على الاعتدال فكان الرسول معتدل في نومه ومشيه وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه فمن رآه بديهة هابه، ومن خالطه عشره أحبه[1].

ومن أوضح الامثلة على وسطية الإسلام في السلوك والأخلاق دعوته المتكررة إلى التوسط والاعتدال في الانفاق والتحذير من التطرف في الإسراف أو التقصير ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: 67] والقوام هو الوسط والاعتدال.

كما أن الإسلام يدعوا إلى التسامح والتعايش مع الآخرين ممن يخالفوه العقيدة أو في المنهج كما يدعوا إلى إقامة جسور للحوار معهم على إختلاف طوائفهم واتجاهاتهم في إطار مجرد عن الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان دون نزعة طائفية، وهذا يتطلب الاهتمام بتطوير المفاهيم الدينية إلى مفاهيم دنيوية مثل المشاركة في الصلاة التي يمكن أن تتحول إلى مشاركة اجتماعية وشعبية.

(1) علي محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 2 : 4.